بعض الشوائب في النحو

للأستاذ عباس حسن
عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة

ايها السادة :

تحية الله وبركاته عليكم ، وخالص الدعاء ان يكتب لكم التوفيق الاسمى فيما انتم بسبيله . وانتهز الفرصة لازجى صادق الود ، وبالغ التقدير لاخوان كرام قدموا علينا فامتلات القلوب انسآ بهم ، وانتشت الافئدة سرورا برؤيتهم ، وتحركت وشائج قربى اصيلة ، وروابط مودات لا تزيدها الايام الا قوة وخلودا .

ولأمر ما وسرّ كامن يلقى العربى اخاه العربى فيتدفق وجههما غبطة وانشراحا ، وتفيض جوانب نفسهما بالارتياح والثقة والاطمئنان ، على حين يلقى غير العربى — وان كان صديقا وفيا ، وزميلا مشاركا فى نعماء الحياة وبؤسها — فيهش كلاهما للآخر ويكتفى من مظاهر الفرحة بهذا ، فشتان بين لقاء ولقاء ، وما اوسع البون بين هذا وذاك ، فهل لخبراء النفس ، واعلام الطب ، وحذاق الفهم ان يكشفوا لنا عن هذا السر الكامن الذى تزداد قوته على الدهر ، وتنمو على الايام خصائصه ؟ ولعلكم تسمحون لى بالجواب الى ان يأتينا منهم فصل الخطاب .

ان الاجابة تنحصر — او تكاد تنحصر — اللغة التى تؤلف بيننا ، وتجمع شتاتنا ، وتربط قلوبنا برباط من الصلة الدائمة ، والحب المقيم . فلم يكن عجيبا من اسلافنا — اجزل الله ثوابهم — ان يسهروا على خدمتها سهرهم على اعز نفائسهم ، ويحرصوا عليها حرصهم على اغلى مقومات حياتهم ، وان يحوطوها بسياج متين من اليقظة الدائبة ، والحيطة الوافية ، والتضحية الغالية ، حملت التاريخ الامين ان يسجل لهم فى اسمى صحائفه مالم يسجله لغيرهم من القدامى ، ويدون عنهم مالم يدونه لسواهم .

لقد قضى هؤلاء وما انقضى فضلهم ، وغابوا عنا وما غابت مآثرهم ولا انقطعت آثارهم ، فقد خلفهم اعلام اهتدوا بهديهم ، وسلكوا المحجة على نور منهم وارشاد . ومن هؤلاء الاخلاف نُحاتنا السابقون ، جزاهم الله خير الجزاء بما قدموا واحسنوا واخلصوا لدينهم ولغتهم وعروبتهم .

ايها السادة :

ليس من شك أن التراث النحوى نفيس غاية النفاسة ، وان الجهد الحميد الذى بذله رجاله والقوامون على اعداده ورعايته جهد لم يهيأ لكثير من العلوم القديمة ، ولايقدر على بذله واحتمال بعض اعبائه حشود من الثرثارين العجزة الذين يوارون عجزهم وقصورهم بغمز النحو ، وطعن السابقين من ائمة الانفاذ ، وما انا بسبيل الكلام عن فضل النحو ، وتبيان آثاره فى حياتنا اللغوية ، والدينية ، والحضارية فهو من هذا كله الدعامة الاولى ، والقانون الاعلى ، منه تستمد العون ، وتستلهم القصد السوى ، وتُهرَع اليه فى جليل شؤونها ، وجوانب حياتها ، ولن تجد علما من

(*) عن مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة للدورة الخامسة والثلاثين 1968 — 1969 .

علومها يستقل بنفسه عن النحو ، او يستغنى عن معونته ، وارشاده ، ولا سيما علوم الدين ، والوصول الى مراقى الاجتهاد ، ولله ابن الانبارى حيث يقول فى الفصل الحادى عشر من كتابه : «لمع الادلة» ما نصه :

«(ان الائمة من السلف والخلف اجمعوا قاطبة على ان النحو شرط فى رتبة الاجتهاد ، وان المجتهد لو جمع علوم العربية لم يبلغ مرتبة الاجتهاد حتى يعلم النحو ، فيعرف المعانى والاحكام التى لاسبيل لمعرفتها بغيره ، فرتبة الاجتهاد متوقفة عليه ، لا تتم الا به») اهـ .

ايها السادة :

لا يزهينا الثناء المردد على النحو ، ولا ينسينا ما داخله من شوائب اساءت اليه . ولست الساعة بسبيل حصرها ، واستقصاء ما تراكم منها . ولكنى اكتفى بالتعريج الى ثلاثة من كبائرها كان لها ابرز الاثر فيما اصاب « النحو » من سوء ، وناله من مغامز .

واولها : مايسمى فى عرف النحاة «بالجمهور» يطلقونه على الكثرة الكاثرة من نحاة البصرة ، وتقابله القلة المغلوبة التى اشتهرت بينهم كذلك باسم : «الكوفيين» ، او «الكوفية»

وثانيها : ما ابتدعوا و اوغلوا فيه من التاويل . والحذف ، والتقدير ، حتى استباح لنفسه امام منهم ان يقول : «لولا الحذف والتقدير لفهم النحو الحمير» . وبلغت بهم الجراة ان يطبقوا هذا على القرآن الكريم فى كثير مما خالف قواعدهم ، وخرج على ضوابطهم .

وثالثها : حال المشغلين بالنحو منذ القرن الثالث الهجرى حتى اليوم ، وموقفهم من انفسهم ومن هؤلاء .

على ان هذه المناكر الثلاثة مترابطة متداخلة لا تكاد تنفصم ، وسأشير الى كل منها اشارة موجزة مفيدة ، وأومئ اليها ايماءة تكشف القناع عن سوء آثارها .

فأما البصرة والكوفة فلا يعنينى من تاريخهما الا نشأتهما الاولى فى القرن الهجرى الاول ، وان ميلاد البصرة اسبق من ميلاد اختها ببضع عشرات من السنين ، وانما فازت بالحظوة لدى خلفاء بنى العباس ولقد استرعى انتباهى وشغلنى طويلا ان ارى البصرة تفوز فى كثير من المسائل النحوية بالتنويه ، والاشادة ، والتقدير ، ولو كانت ابعد من الصواب . على حين تخفق الكوفة فى انتزاع التنويه والاشادة فى تلك المسائل، مع انها فى حكمها ادنى الى السداد واقرب الى الصواب. راعنى الامر وعجزت عن ادراك سره طويلا حتى هدانى اليه ، وكشفه لى عالم مؤرخ جليل اقدر فيه انه ثبت العلم ، متحر فى حقائقه ، فقال : لا تنس ان الكوفة كانت مأوى الشيعة العلوية ، ومهبط انصارها ممن يخشاهم العباسيون اول نشأة دولتهم ، ونشأة النحو معهم ، ويخافون تألبهم ، فراقبوا تلك المدينة ، اصحاب الراى فيها مراقبة حازمة بطريقة ناجعة ، ولكنها هادئة. هى الاغداق على اهل البصرة وذوى الراى والوجاهة من علمائها الاعلام وتقريبهم من مجالس الخلفاء ومراتب الحكم والجاه . فأقبل الناس على من اقبلت عليه الدنيا ونشروا آراءه بالحق وبالهوى ، وانصرفوا عمن اعرضت عنه الدنيا ، فما اليه حاجة تبتغى ، ولا غرض يرتجى تحقيقه .

هذا ما يقوله المؤرخ الامين يفسر به الغامض ، ويجلو الخفى من الامر . وسواء اكان رأيه تعليلا صحيحا للواقع ام بعيدا منه ، لا شك أنّا نشهد اليوم آثار الطغيان البصرى فى كتب النحو قديمها وحديثها ، فما نكاد نقرا بابا من ابوابه على كثرتها وتشعب مسائلها حتى نصدم بمثل قولهم : «هذا راى الجمهور ، وهو الصحيح ، خلافا للكوفيين» — «هذا راى البصريين ، وخالف الكوفية» — «هذا راى الجمهور وعليه المعول» وامثال هذه العبارات التى اكتفيت بما عرضته منها . نزولا على ضيق الوقت ، ومراعاة للمقام كما يقولون . وحسبى ان اعرض صورا تؤيد دعواى ، واتوصل بها الى ايضاح ماريد :

(أ) فمن الامثلة ما جاء فى التوضيح وحاشيته ويكاد يكون نصه : « : يجب نصب المستثنى بالا فى لغة الجمهور اذا كان الكلام تاما موجبا ، كقوله تعالى : «فشربوا منه الا قليلا منهم» ولا يجوز رفعه الا بتاويل . ومما تناولوه بالتاويل قراءة من قرا قوله تعالى : «فشربوا منه الا قليل منهم» برفع كلمة «قليل» وقوله عليه السلام : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخرفعليه الجمعة الا امراة ، او مسافر او مريض) ، وقوله عليه السلام : (ما للشياطين من سلاح ابلغ فى الصالحين من النساء الا المتزوجون)، وكقول ابى نواس فى مدح الامين.

ياخير من كان ومن يكون الا النبى الطاهر الامين

— واردفوا هذا البيت بقولهم : ان ابا نواس يستعمل فى شعره مذهب الكوفيين كثيرا وهذا من جملة مذاهبهم — وقول الشاعر :

وبالصريمة منهم منزل خَلَقٌ
عافٍ تغير الا النؤى والوتدّ

وقد تناولوا هذا البيت بما تناولوا به الآية السالفة ــ وغيرها ــ من التأويل الذى يجعل الكلام تاما منفيا لا موجبا ــ كى يصلوا من وراء هذا الى اعتبار الكلام تاما غير موجب ، فيجوز فيه الرفع والنصب ، وان المراد من الفعل : «تغير» فى البيت هو : لم يبق حاله ، وبهذا صار الكلام تاما غير موجب كما يشتهون .

ويروقنى ما سجله بعض المحققين المتثبتين ردا على تأويلهم السالف حيث يقول : «(لاشك ان كلامهم مردود ، وتأويلهم بعيد بل فاسد ، اذ يمكن تطبيقه على كل كلام تام يجب نصبه . بيان هذا : ان كل كلام مثبت لابد له من ضد غير مثبت ، فمعنى «تعلم الرجل» : لم يجهل ، ومعنى «جهل» : لم يتعلم ومعنى «تحرك الطفل» لم يسكن ، ومعنى «سكن» : لم يتحرك ، ومعنى (شرب) لم يفقد الماء ولم يظمأ ، ومعنى «فقد الماء» ما شرب ، ، وهكذا .. فلو اخذنا برأى هؤلاء النحاة وفتحنا باب التأويل لم يبق فى الكلام العربى أسلوب مقصور « على التمام مع الايجاب » دون أن يصلح للنوع الثانى ، وهو « التام غير الموجب » وهذا غير مقبول .

والحق الذى لم يتنبه له كثرة النحاة أن الآية والامثلة السالفة واشباهها مما وقع فيه المستثنى غير منصوب فى الكلام التام الموجب ، انما ورد صحيحا مطابقا للغة بعض القبائل العربية التى تجعل الكلام التام الموجب والتام غير الموجب متماثلين فى الحكم ، يجوز فيهما اما النصب على الاستثناء ، واما البدل من المستثنى منه ، واما الرفع على الابتداء ، ، فلا معنى للتأويل بقصد اخضاع لغة قبيلة للغة نظيرتها . واذا كان التأويل معيبا وواجبنا الفرار منه جهد استطاعتنا فان الانسب اليوم لنا ان نتخير عند الضبط الاعرابى اللغة الضاربة فى الفصاحة الغالبة الشائعة بين اللغات المتعددة ، لنقتصر عليها فى استعمالنا ، تاركين غيرها من اللغات واللهجات الاعرابية الضعيفة او المعيبة ، توحيدا للتفاهم ، وفرارا من البلبلة الناشئة من تعدد اللغات واللهجات بغير حاجة ماسة ، فعلينا ان نعرف تلك اللغات الضعيفة فى مناسباتها ويستعين بها المتخصصون على فهم النصوص الواردة بها دون محاكاتها فى ضبط الحروف ، او القياس عليها ، بالرغم من انها صحيحة يجوز محاكاتها ، لان كل ما قرئ به القرآن يصح محاكاته)» ا هـ .

فالآية عندهم مؤولة ، والاحاديث مؤولة ، والشعر مؤول . والكلام نثره ونظمه مؤول ان خالف قاعدتهم . و عجيب أن يخضعوا الكلام المخالف كله لسهام التأويل والحذف والتقدير دون ان يصححوا قاعدتهم لتساير افصح الكلام ونصيحه ، ويتحمل الباحثون والمتعلمون من العناء والبلبلة والاضطراب ما لا خير فيه ، بل ما فيه الضرر واضح ومع هذا نبقى عليه ونردده منذ عشرات القرون . ولا نجد من يقف فى طريقه ليصده ويحول بينه وبين الذيوع والانتشار .

(ب) مثال آخر ــ وما اكثر الامثلة ــ يقول النحاة لا يصح ان يتصل بآخر الفعل علامة تثنية او جمع اذا كان فاعله اسما ظاهرا ، وما ورد مخالفا لهذا فمؤول كقوله تعالى : «وعَمُوا وصَمُّوا كثيرٌ منهم» وقول الشاعر

تولى قتال المارقين بنفسه
وقد اسلماه مُبعد وحَميم

وقول الثالث :

نصروك قومى فاعتززت بنصرهم
ولو انهم خذلوك كنت ذليلا

وقول الرابع :

يلوموننى فى اشتراء النخيـ
ـل اهلى فكلهم يعذل

كل هذا وامثاله مؤول عندهم لمخالفته قاعدتهم ، اما هى فثابته ركينة لا تتأول ولا تتحول .

(جـ) وفى النحو باب عجيب يسمى : «باب التنازع» له من اسمه أوْفَى نصيب نشير فيه الى قولهم : « قام و تكلم محمد» ، لايصح أن يكون الفاعل للفعلين معا هو محمد ، وخالف فى هذا فريق ــ يقصدون الكوفيين اما لماذا لا يصح فكلام بادى الوهن .

(د) ويقول ابن هشام ان جموع التكسير سماعية كلها ، ولا يلبث بعد كلمات من حكمه هذا ان يبين المطرد منها وغير المطرد ، ويصف مفردات تلك الجموع المطردة. فاى تناقض هذا بين حكمه وعمله . وما زال كثير منا يجاريه فى هذا الحكم الخاطىء .

ويقول ابن هشام ايضا إن «مفعولا» لا يجمع قياسا على « مفاعيل » وأن « فَعْلا » صحيح العين لا يجمع قياسا على « أفعال » وما ورد من ذلك نشاذ . مع أنه عرض من هذا الشاذ لكل نوع

مـا يزيـد علـى العشـرة ، وعرض غيره ممـن جاء بعده عشرات ، وما زال كثير يتابعه ويقدس ما قالـه بغير حق ولا سداد .

هـ) ويقول ابن مالك فى « الفيتـه » : « ونعتـوا بمصدر كثيرا» ، فيجيء شارحه الاشمونى ويقول : مع كثرته مقصور على السماع . فكيف يصح الحكم بانه كثير ومع كثرته مقصور على السماع ؟ .

(و) ويقول ابن مالك ايضا :

فعل قياس مصـدر المعـدّى
من ذى ثـلاثـة ، كـردّ ردّا

فيقول سيبويه : هذا مقصور على السماع الوارد لا يجوز مخالفته ، فان لم يرد للفعل مصدر مسموع لجانا للقياس . فهل هذا مما تقبله العقول المفكرة المتثبتة ؟

وبعد . فما الذى ابغيه من كل ما سلف ؟ اريد ان اقرر باب الاجتهاد اللغوى مفتوح ، والدخول منه ميسور لمن شاء مادام مسلحا بنور العلم ، وسداد الـرأى ، والبعد عن الافراط والتفريط ، والميل الى التيسير فى غير افساد ولا تحجر ولا جمود ، وان نحرم التاويل فى كتاب الله بغير حاجة ملحة تدعو الى التاويل . ومن العجائب ان نؤمن عن يقين واطمئنان ان القرآن الكريم اسمى لغة بيانية عرفتها البشرية فاذا حاكاه الاديب والمثقف حكمنا على المحاكاة احيانا بالخطأ فى بعض مناحيها . فان دافع المتكلم عن نفسه وقال انى احاكى القرآن واسير على نهجه كان الجواب: «القرآن مؤول اما انت فمخطئ» فهل يخطىء من يحاكى القرآن ؟ واذا ساغ لهم تأويل القرآن فليستسيغوا تأويل غيره مـن باب أولـى دون تخطئته مع ثبوت محاكاته .

لسنا اليوم بالبصريين ، ولا الكوفيين ، ولا غيرهم من نحاة المشارقة والمغاربة وليست الدواعى التـى كانت قائمة اذ ذاك بباقية اليوم ، وليست الدوافع التى تـدفعنـا الـى التجـديـد والتنقيـح والتيسـير حينـا والتشـدد حينـا ممـا يهمـل امـره ، او يغفـل شانـه . فعلينـا واجـب يفـرضه الحـب للغتنا ، والحفاظ عليها ، والاخلاص لبلادنا ومتعلمينا ، هو : ان نخلص النحو من شوائبه فى غير تسرع ولا تخلف ، وان نقضى على ما ذاع وشاع مما أسأنا فهمه فاسأنا الى اللغة تبعا لذلك ، كالذى تردده بعض الالسنة من مثل : (فى ضبط هذه الكلمة قولان او اقوال) (هـل المعنى فرع الاعراب ؟ هل الاعراب فرع المعنى؟) (حروف الجر ينوب بعضها عن بعض ، وكفى) (فى الكلام تضمين) الى أمثال هذه الشائعات التى افسدت علينا جـوانب من سلامة الاسلوب ، اذ لم يتضح المراد الحق منهـا لكثير ممن يتشدقون بها ، ولم يتبين لهم الغرض الصحيح الذى رمى اليـه مبتكـروها .

علينا ان نعرض قواعد النحو على القرآن الكريم، والصحيح من احاديث الرسول ، والفصيح من كـلام العرب ، دون اعتبار لتميم او قيـس او غيرهما مـن القبائل الستة التى اقتصر جامعو اللغة عليها مـع مـا فيها من تخالف وتعارض وزاد الامر اساءة انهم تركوا القبائل الكثيرة الاخرى مقتصرين بغير حق على تلـك القبائل الست المتخالفة ، وكان من جراء هـذا وذاك البلبلة النحوية التى نشاهدها اليوم ، وان ناخذ بالخطة الحكيمة البارعة التى اختطها احد المحققين من ثقات الباحثين ونلخصها فى الاقتصار فى ضبط الحروف ضبطا اعرابيا على ما ورد فى القرآن الكريم وفى المراجع السالفة، وفى الثابت من كلام القدماء ، دون ان نسمح بتعـدد الضبوط الاعرابية فى الكلمة الواحدة ، ودون ان نطلق عليها الا اسما اصطلاحيا واحدا . فمن الافساد ان نقول ان هذه الكلمة تصلح ان تكون حالا ، وتمييزا ، ومفعولا مطلقا ، ومفعولا به ، او معه ، لا يصح ان نقول هذا ؛ لما فيه من اهدار لمهمة خاصة يؤديها كل نوع على انفراد والغاء لفائدته التى يتميز بها ، والمراد الحق منه . وليس بعد هذا فساد واضطراب .

اما متن اللغة الذى يشمل مفرداتها ومادتها فلنا ان ناخذ منه ما نشاء من هذه القبيلة ومن تلك ، دون توقف او تردد ، ففى هذا الاخذ الحر المسموع عنهـم اثراء اللغة ، وتمكين لها ، وزيادة محمودة طيبة الاثر .

ايها السادة :

من اجدر بتحقيق هذا الامل وانجاز الخطة القويمة الجديرة به او بما يماثله من حكيم الخطط وبارع الابتكار؟ انهم علماء مجامعنا الاعلام ، وسدنة لغتها الاشذاذ واليهم تتجه العيون والقلوب . بهذا يضيفون الى فضل القدامى فضلا جديدا لا يجحد ، وخالدا لا يمحى .

كـان بـودى أن أعـرض لكثـير مـن الشوائـب الاخـرى كلفـة النحـاة ، وجـدلهـم فى مجالسهـم ، ووهـن حـجـجـهـم وادلتهـم ،

وما يتخللها من الفاظ واشارات ، ولكن الوقت سواق حطم ، يدفعنى الى النهاية ، ويابى المزيد . ولا يفوتنى وانا اشير الى تعليلاتهم التى تورث العلة احيانا — ان ادعو القارئ لمتابعة كتاب «كالانصاف فى اسباب الخلاف» لابن الانبارى ، أو كتاب «الروضة» ، ، ليقرا ويشهد أبرع أنواع المنطق ولكن فى غير موضعه ، الراى المحكم ولكن فى غير مكانه ، والاطالة فى غير افادة ، والاستطالة على الواقع بهرج القول وخادع الكلام .

وفق الله المجامع ورجالها الى مافيه صون اللغة وبقاؤها على الايام خالدة ناهضة . والسلام على من اتبع الهدى .